وهذا التاريخ كما ترى بعد الفتح الاسلاميّ . وعندنا انَّ اكثر كنائس الاقباط القديمة التي تتشابه من حيث غورها في بطن الارض واشكالها وكتاباتها انَّما هي من بعد الفتح المذكور . ولعلَّ النصارى التجأوا الى هذه الاغوار ليمارسوا ديانتهم فيها

(التتمَّة لعدد آخر)

يمين العليّ

رواية تاريخية للاب س . ت اليسوعيّ (تابع)

الفصل الرابع

الشقيق والشقيقة

ما كاد يتمزَّق ستر الليل حتى اخذت حركة الاشغال في بيروت . فكنت ترى في طُرقها زمرةً من العبيد يسعون لخدمة سادتهم . امَّا الفقراء والصعاليك الذين قضوا ليلتهم مشتملين باطمارهم تحت الاروقة الممتدَّة على جانب السكة الرومانيَّة المؤدِّية الى النهر او لاصقين بجدران حمَّامات اغريبا الدافئة فانتبهوا من رقدتهم وهم يتمطَّون بالاصلاب ويتحايدون عن طريق السابلة لئلَّا تدوسهم الارجل . وكان الفلَّاحون يتواردون الى البلد منهم من يحمل البقول على مناكبه . ومنهم من يسوق دابَّتهُ الموسقة بالفاكهة او بدواجن الطير او البيض . والجمَّالة يقودون بُعرانهم الى مرفإ المدينة عليها اخشاب الارز الضَّخمة المقطوعة في لبنان

ومع انَّ الفجر لم يُسفر بضيائهِ كنت ترى « دار الورود » تشعُّ نوافذها بانوار المصابيح على خلاف عادة سكَّانها وكان الخدَم في جلبة يدعو بعضهم بعضاً ويتأهبون لامر عظيم وبينهم الناظر ينتهرهم ويتهدَّدهم إن تأخروا وكان يصرخ : ألا تعلمون انَّ سفينة « العنقاء » على وشك دخول المرفإ فهيَّا اسرعوا كل السرعة

وما مرَّ على هذا القول بضع دقائق حتى صرَّ الباب على اعتابهِ فانفتح وخفَّ سانسان من العبيد الى جهة المرفإ . وكانا يسيران سيرًا حثيثًا فتتطاير عن جسمهما الفاخم اطراف ازارهما الابيض . وتبعهما بعد هنيهة عصابة من العبيد حاملين على اكتافهم محفَّةً فارغة أعدُّوها للقادم الشريف

وكان سلوانس الناظر تاخَّر قليلًا لبعض شؤونهِ فسبقهُ العبيد الذين وُكل اليهِ امرهم فالتفتوا واذا بهِ لم يجئ بعد فاخذوا يمزحون في حقهِ ويتفاكهون فهذا يهزأ بحركاتهِ وذاك يتقلَّد لفظهُ الاجنبيّ . وكان واحد يقول:

دَعنا نترَيَّث في السير فاذا جاء يوسف سيدنا ولم يَرَنا فيكون الذنب على سلوانس الناظر فيُلقى في مطمورةٍ او يُرسَل الى البقاع ليرعى خنازير معلِّمنا

واردف عبدٌ من الاحداث الفرهين الحُبناء: امَّا انا فاذا ترَبَّع مولاتا على المحفَّة وجاء الدور اليَّ لحملهِ هززتُ بهِ هزًّا مُقلقًا فيتزعج بهذه الحركة

وبينما كان العبيد في قيل وقال يصرخون ويقهقهون اذ سمعوا فوق رؤوسهم فرقعة السياط وصوتًا كهزيم الرعد يقول:

أرى الفئران يرقصون بغيبة القطّ . زُمُّوا الألسنة يا انذال وخفُّوا بالسير والّا . . .

فارتجفت فرائص العبيد وعرفوا انَّ الوكيل ادركهم . وكانوا مع خوفهم منهُ يطيعونهُ ويسمعون قولهُ لانَّ سلوانس كان طيّب القلب يتظاهر بالجفاء وهو في الحقيقة رقيق الطباع ليّن الجانب لا يستعمل مع الخدم الضرب والشدَّة . ومن ثم نظر اليهِ العبد الصغير ضاحكًا فقال:

انَّ حيَّتك يا سلوانس لا تلذع وسوطك لا يضرب غير الهواء

فهجم عليهِ سلوانس كأنهُ يريد تأديبهُ . الّا انَّ الصغير اخذ حذرهُ وادلع لسانهُ راكضًا

*

كان رصيف المرفأ لما بلغهُ عبيد السيّدة يهوديت غاصًّا بالاهلين مع انَّ الشمس لم تطلع بعد . فهذا ينضّد حمولهُ الواصلة وذاك يُعدُّ بضائعهُ ليرسلها الى الجهات . واصوات القوم تخرق الجوّ فمنهم من يدعو الحمَّالين ومنهم من يخاصم التوتيين

وكانت السُّفن راسيةً في مرفإ بيروت الصغير تتحامى وراء السدّ الامواجَ المتلاطمة وكان عددها وافرًا تبلغ نحو مئة مركب قدم بعضها من الاسكندريَّة وبعضها من رودس او قبرس او جزائر اليونان او صقلية ولكل هذه السُّفن هيئات متباينة بين طويل وعريض ومسطَّح ومزيَّن بصور آلهة الرومان والفينيقيين ومنها شراعيَّة ومنها ذات مقاذيف متعدّدة الصفوف وبعضها للحرب وبعضها للاسفار البعيدة . وكان الهواء يتلاعب

بها جميعاً فتراها تتمايل من مقدَّمتها الى مؤخَّرها او تتهادى يميناً وشمالاً وتصرّ صريرًا اشبه بصوت الثكلى

وبينما كان سلوانس وقومهُ يُنعمون النظر ليميّزوا بين هذه السُّفُن « العنقاء » اذ رأوا على مسافة نحو خمسمائة قدم قلوعاً بيضاً يهبُّ فيها الريح فيسوقها الى المرفإ. فصرخ بعض التجار هي « العنقاء » القادمة من رومية على طريق الاسكندريَّة وكان من جملة ركّابها يوسف بن صمويل اليهودي واخو يهوديت صاحبة دار الورود. وكان هذا بعد نهاية دروسهِ في اثينة رحل الى رومية لكنَّهُ لم يُطل الاقامة فيها فعاد راجعاً الى بيروت قبل الاوان. فزار في عودتهِ الاسكندريَّة وقبرس وارسل منها بريداً يخبر اختهُ بوصولهِ. وكان البريد سفينةً قبرسيَّة اقلعت من قبرس عند وصول « العنقاء » اليهـا فبلغ الخبر في نصف الليل وذلك كان سبب تلك الحركة الغريبة في بيت صمويل قبـل تنفُّس الفجر

فلمَّا تحقَّق سلوانس انَّهـا « العنقاء » صفَّ العبيد على طرف الرصيف ليتلقَّوا سيّدهم بشارات الاكرام

وكانت السفينة تتقدَّم بسرعة الغريبة لانَّ بحَّارتها لم يكتفوا بمدّ الشُّرُع بل كانوا على اربعة صفوف في قعر السفينة وسطحهـا يقذفون بالمجاذيف على ايقاع صوت ناظرٍ كان جالساً في اعلى السفينة فيصفّق بيديهِ ويتغنى بنغمة واحدة يردّدها

وكان الناس يزدحمون لمشاهدة هذه السفينة التي كانت تُعَدّ من اجمل سفن ذلك العهد وهي تأمّة الاهبة مجهَّزة بالادوات الرشيقة ومزيَّنة باصناف التصاوير

فوصلت العنقاء بعد قليـل ونفذت بين السفن كالسهم الرشيق حتى كادت تمسُّ الرصيف. وللحال مُدَّت الى البرّ خشبة على هيئة الجسر تسابق الناس الى الاجتياز عليها

لكنَّ سلوانس لم يدع احدًا يتقدَّمهُ وكان الناظرون يهابونهُ لهيئتهِ الجبَّاريَّة فدخل السفينـة ومعهُ عبدان وبقي العبيد الآخرون في انتظارهم ينحوُن اصحاب الفضول ويفيدونهم علماً عن مرتبة القادم اعني « يوسف بن صموئيل صاحب الثروة والجاه في بيروت. وهو شابٌّ من علماء زمانهِ المعدودين درس في اثينة وزار رومية والاسكندريَّة ولا مراء انهُ واجه الامبراطور الجديد قسپاسيانوس »

وصارت هذه الاخبار تتناقلها الالسنة ويعظمها الواحد بعد الآخر حتى اضحى الجميع عيونًا شاخصة ليروا الوافد ويشبعوا منهُ ابصارهم

وما لبث سلوانس والعبدان حتى عادوا بعد حين وعلى اكتافهم المحفَّة يركبها ابن سيِّدهم . فكان القادم لابسًا رداء طويلًا ابيض كالثلج فوقهُ شملة حمراء تَنَكَّبها على زيّ الرومان وهو مضطجع يسند رأسهُ الى وسادة توسِّدها

فلمَّا رآهُ الجمهور حادوا عن طريقهِ وعلت اصوات عبيدهِ للسلام عليهِ وكذلك دعا لهُ بالتهليل كلُّ من كان يعرف اباهُ او يعاملهُ في التجارة . فردَّ يوسف عليهم السلام متبسمًا وشكرهم باشارة من يدهِ المثقلة بالخواتم والفصوص الكريمة

وللحال سار الموكب في نظام حسن فكان السائسان يتقدَّمان لفتح الطريق ووراءهما محفَّة السيِّد يوسف ثم يلي المحفَّة عدد من حشمهِ واهل دارهِ وفي يد كل منهم آنيةٌ ثمينة وآثار غريبة أتى بها من البلاد الاجنبيَّة . ثم خلفهم عدد غفير من العبيد . وكان هذا الموكب يزداد في طريقهِ الى حيّ اليهود فيتبعهُ من اوساط القوم كلُّ من ينتمي الى أسرة صموئيل او لهُ معها بعض العلاقات

فلمَّا بلغ الموكب « دار الورود » نزل صاحبها وصرف القوم التابعين بعد ان فرَّق عليهم بعض الدنينيرات وامر وكيلهُ ان يتبرَّع بمثل ذلك على كل من يأتي للسلام مدَّة الاسبوع كلهِ

ثم دخل غرفة الاكل الشتائيَّة وفيها كانت تنتظرهُ اختهُ يهوديت لتستقبلهُ اذ لم تسمح لها قيمتها دوروتيا المصريَّة ان تخرج الى ساحة الدار وفقًا لآداب النساء المرعيَّة في ذلك العصر لئلاَّ تختلط بسَفَلة القوم

فما رأت اخاها داخلًا حتى ترامت عليهِ ضاحكةً باكيةً لا تعرف بايّ كلام تستقبلهُ ثم اخذت تقبِّلهُ مرارًا وتلقي عليهِ الف سؤال عن حالهِ وسفرهِ وهي لا تدع لهُ وقتًا للجواب

امَّا يوسف فكان يكتم فرحهُ كما يليق بمثلهِ فيتقبَّل تحيَّات اختهِ ويفرح لفرحها دون ان يبالغ بالمظاهرات الوديَّة . ومع تصوُّنهِ كنت تراهُ لا يدع امرًا من امور الدار الَّا يستخبر عنها فلم يَفُتهُ منها شيء . وكذلك تنازل فاظهر لطفهُ لخدَم البيت الذين بارحهم منذ اربع سنوات

وفي مساء النهار لمّا عادت الى يهوديت سكينتها اخذت تطلب من اخيها ان يقصّ عليها اخبار رحلتهِ وكلّ ما عاينهُ او حدث لهُ في غربتهِ

— ماذا ترّعمين يا اختي ؟ وكيف اخبرك بكل ما رأيتُ. هذه اربع سنوات مرّت عليَّ منذ خروجي من بيروت وقد شاهدتُ ما لا تكفي كتب ضخمة لتصفهُ

— بدارِ بدارِ ايها العزيز ولا تخفِ عليَّ شيئاً من اخبارك السارّة. واياكَ ان تفعل كابي الذي لا يهمُّهُ شيء سوى اخبار التجارة واسعار الحرير والارجوان. وما اشبه فاذا خسر خسارةً تجهَّم لنا وعبس بوجهنا. امّا اذا ربح ربحاً ما فتراهُ متهلّلاً يبشُّ بنا ويمنحنا طلباتنا بشرط ألّا نطلب شيئاً غالي الثمن

— لا يزال لسانكِ طويلاً كما عهدتهُ. فاسمعي لي وكفّي عن النميمة. . . لعلّكِ ظننتِ انني بقيتُ حزيناً كئيباً بعد ان فارقت الاوطان. ولكن ساء ظنكِ فانّي وجدت في اثينة من البهجة والسرور ما لا يفي بوصفهِ لسان. وما كادت تستقرُّ بها قدمي حتى تبدّدت احزاني وسُرّي عني. والحقّ يقال انّ اثينة من اجمل مدن العالم ولولا انّ رومية اليوم غلبتها في آثارها لعددتُها جنّة عدن. فانكِ مهما سرتِ لا ترين فيها ألّا هياكل عظيمة ومعاهد واسعة ومراسح بهيّة وكل ساحاتها مزيّنة بتماثيل لابرع النحّاتين. وما كنتُ ادعُ يوماً يفوتني دون ان ارقى الى ربوتها فاسرّح الابصار في تلك المناظر البديعة التي لم يجتمع مثلها تحت الشمس فازور هياكلها وادقّق النظر في مآثرها لا رغبةً في دين اهل اثينة الباطل وحبّاً بآلهتهم الكاذبة ولكن لاشفي غليلي من محاسن العقل البشريّ وبديع اعمالهِ. وكنّا اذا صار المساء نتردّد الى اروقة المدينة او الى حدائقها فنقضي ساعاتٍ في ارتشاف كؤوس الهناء وتجاذُب اطراف الحديث. امّا الليل فكنّا نحضر فيهِ ضروب الالعاب

— بخٍ بخٍ وكنتَ ترعم في كتبك لوالدنا انك متفرّغ للدرس

— لم اكذب على والدي لانّ العيشة في اثينة بمنزلة الدرس فانّ مجرّد النظر الى آثار هذه المدينة يفقّه العقل ويهذّب الالباب. لا يستطيع الغريب ان يخطو خطوةً دون ان يتعلّم شيئاً جديداً وكذلك اذا تردّد على اساتذتها وأدبائها وجد في لقياهم منافع جمّة واتّسعت مداركهُ وسمت همتهُ فطلب المعالي ليقتصّ آثار الابطال الاقدمين

— اخاف ان تكون نسيت ديننا وهيكل اورشليم

كلاَّ لم اجحد دين آبائي ولم ازل اوجّه النظر الى مدينة القدس. وقد لقيت في اثنة قوماً من اهل جلدتنا وهم مثلنا في انتظار مسيح الربّ. وقد اخبرني بعضهم انَّ قبل ورودي بخمس عشرة سنة قدم المدينة رجل من ترسوس يدعى بولس بشَّر الأثينيين بإله مجهول. وكان لكلامهِ وقعٌ في الجمهور فباحثهُ الفلاسفة واخذوهُ الى محفلهم اريوس باغوس فلمَّا سمعوهُ يتكلَّم عن القيامة نبذوا كلامهُ نبذ النواة واستهزأُوا بهِ قائلين: « سنسمع منك عن هذا مرَّةً أُخرى ». الَّا انَّ امرأَةً تدعى داماريس واحد عظامهم اسمهُ ديونيسيوس وغيرهما قليلين خُدعوا بهِ وتتلمذوا لهُ (راجع سفر الاعمال ف ١٧)

وليس بولس هذا الَّا احد زعماء النصارى يطوف البلاد ليقنع الناس بانَّ رجلاً اثيماً يُدعى يسوع سعى كهنتنا بقتلهِ هو المسيح الموعود. الم تسمعي يا اختي بالمسيحيين؟

— نعم سمعتُ واعرف انَّهم محبُّون للسلام لا يريدون سوءا لاحد

— بئس ما ظننتِ فانهُ ليس على الارض قوم شرٌ منهم. وهم سبب كلّ الشدائد الحالَّة بنا. كان قياصرة رومية يحبُّوننا ويدافعون عنا حتى ظهر هؤلاء العيَّارون فصرفوهم عن محبَّتنا والقوا في قلوبهم بذور العداوة والبغض لنا... وقبل اليوم باربع سنوات احرقوا جانباً كبيراً من مدينة رومية ليستولوا على الامر وارادوا ان يلحقوا تبعة الاثم علينا

— يا لله

— ولكن عاد كيدهم في نحرهم فان نيرون عرف خبثهم فقتل منهم في شهر آب من السنة ٦٤ عدداً لا يفي بهِ احصاء. كما اخبرني رئيس مجمعنا في رومية. وكان الناس يظنونهم بادوا من وجه الارض لكنَّهم ما لبثوا ان ظهروا ثانيةً واثاروا الفتن في انحاء شتى حتى اسعروا علينا غضب رومية (ستأتي البقيَّة)

مطبوعات شرقية جديدة

CHANTS ARABES DU MAGHREB
par C. Sonneck, *Paris, Maisonneuve*, 1902, p. 224
الديوان المُغرب في اقوال عرب افريقية والمغرب

كثيراً ما ذكرنا في المشرق ولوع علماء الغرب بدرس اللغات العامية وتدوينها لا